ليلى الشال

«عندما بدأ العدوان الثلاثى كنا قد تدربنا على حمل السلاح وأرسلنا الحزب بتنسيق مع العسكريين إلى منطقة أبو صوير. هناك شاهدت فى ريف مصر فتيات يتقدن حماسا ووطنية واستعداداً للتضحية، قمنا بحملات توعية وعمل تنظيمى يسعى لمشاركة المواطنين ضد المحتلين فى حالة تقدمهم إلى المنطقة. هناك عشت أجمل أيام النضال، حيث الجماهير تعشق الوطن بحق، وتتمنى التضحية من أجله بحق. وبين هؤلاء فتيات يمتلكن حماساً دافقا. ووعيا فطريا يستحق الاحترام».

ليلى الشال

(فى حوار معى)

الأب كان مديراً لمصنع السكر ثم مفتشا لعديد من التفاتيش الملكية، والنداء الذى تسمعه كان «البيه المدير» أو «البيه المفتش». عندما ولدت كان الأب مديرا لمصنع السكر فى الشيخ فضل، العمال يحيون حياة بائسة، أجور هزيلة، وظروف عمل غاية فى الصعوبة، فمنحهم «البيه المدير» قليلا من راحة وقليلا جدا من زيادة فى الأجر. عبود باشا صاحب المصنع غضب، فلا مجال عنده لأى مشاعر، الأب غادر العمل مرغما وأصبح مفتشا لتفاتيش ولى العهد (الأمير محمد على) وفى كل صباح كانت كارتة «البيه المفتش» تنقل البنات ومنهن ليلى إلى مدرسة الراهبات فى الزقازيق.

لكن الأب يموت سريعا. وترحل الأم بالأبناء إلى القاهرة. هناك كان اليوزباشى محمود المانسترلى شقيق أختها وابن خالتها. محمود كان شيوعيا وعمل طويلا مع تنظيم الضباط الأحرار. كانت سنة أولى ثانوى بمدرسة الجيزة الثانوية، عندما أعطاها محمود رواية «الأم». سحرتها هذه الرواية، الفتى المناضل «بافل» وأمه وصراعهما ضد الاستغلال عاشا دوما فى وجدانها، وتأتى أحداث مارس ١٩٥٤ لتخرج فى المظاهرات ومحمود يوجهها

ويلقنها الشعارات التى تهتف بها دفاعا عن الديمقراطية، لكن الضوء لم يزل خافتا. ثم أتى الضوء باهرا عندما تتلمذت فى ١٩٥٥ على يدى شهدى عطية. كان شهدى قد أنهى مدة سجن استطالت ثمانى سنوات «أشغال شاقة» وتبقت خمس سنوات أخرى «مراقبة» أو ما يسمى قانونا بالعقوبة التبعية. حيث يتحتم أن يبقى حبيس بيته من لحظة الغروب حتى لحظة الشروق. أمعن شهدى فى الاستفادة من فترة الاحتجاز القسرى فى منزله كل يوم، يكتب، يترجم لكن عشقه الأكبر كان مدرسة الكادر التى نظمها لتدريس النظرية والتاريخ والفلسفة والأداء التنظيمى. ليلى كانت تعبر الكوبرى لتصل قادمة من المنيل إلى شارع قصر العينى. تسير مسحورة بانتظار معرفة متدفقة وتعود مسحورة بما تلقنت. ورويدا رويدا يستضىء القلب والعقل معا، ويترسخ لهيب الضوء فى وجدان تعلم كيف يحتضنه. فى هذه الأثناء كانت عدة منظمات صغيرة قد انضمت إلى «حدتو» بفضل جهود مشتركة لشهدى عطية ومحمود أمين العالم وقيادات المنظمات فى سجن القناطر. ويتأسس الحزب الموحد.

وإذ تنتهى الدراسة الثانوية تلتحق بكلية التجارة قسم علوم سياسية. كان الحكم الناصرى قد أصبح حليفا وكان الشيوعيون قد أسهموا وبحماس فى حماية الجبهة الداخلية بعد تأميم قناة السويس والمقاتلون والكوادر من قيادات الحزب، ومنهم ليلى، اخترقوا حصار بورسعيد أو تمركزوا فى تخوم هذه المدينة استعدادا لمواجهة أى تقدم يجازف به العدو. وبدأت فترة من الازدهار الحزبى فى الجامعة. وتشكلت قيادة منها ومن عادل حسين ومحمد عمارة وفؤاد التهامى وعلى الشريف، ونهضت براعم نضالية بغير حصر، والقائد لكل ذلك كان الرفيق جمال غالى (أحد قادة الجامعة فى الأربعينيات). ليلى أصبحت قائدة طلابية حقيقية، وتمرست فى النضال فى أخطر مناطق التماس مع بورسعيد حيث الاحتلال الثلاثى، وعرفت كيف تكسب قلوب البسطاء وكيف تعرض أفكارها على البسطاء، وتدربت على السلاح واستخدام القنبلة والتمريض والإسعاف عبر اللجنة النسائية للمقاومة الشعبية، وخاصة فى فرعها بالجيزة، حيث عملت هى وثريا إبراهيم فى تنسيق جاء مع ممثل النظام آنذاك أبو الفضل الجيزاوى، وفى أبو صوير تجلت كل مهاراتها. وإذ يهزم العدوان تسلم سلاحها وتعود إلى الجامعة، ويبدأ مجال آخر للتنسيق مع الحليف الناصرى هو «لجان باندونج» وهى تشكيلات شبابية يقودها الضابط وحيد

رمضان من مقر مهيب فى قصر عابدين للعمل فى ظلال كتلة عدم الانحياز، ويكون جوهر تحركات هذه اللجان هو التعبئة الشعبية ضد الاستعمار الأمريكى والصهيونية. وتمثل ليلى الشال ومحمد عمارة شباب الحزب الشيوعى الموحد فى التنسيق مع وحيد رمضان.

وفى غمار هذا العمل المشترك مع الحليف الناصرى يحدث ما يكشف النقاب عن حقيقة الحليف وحقيقة التحالف. ففى الأردن يتحرك القصر الملكى ليدبر انقلابا ضد حكومة الزعيم الوطنى سليمان النابلسى. وتلتهب الصحف الحكومية والإذاعات المصرية و«صوت العرب» بهجوم شديد القسوة على النظام الأردنى ودفاعا عن الزعيم الوطنى النابلسى.

وربما لأن الرفاق فى الجامعة صدقوا دفاع الحليف عن النابلسى، أو ربما وجدوا فرصة للتنفس الجماهيرى بعد فترة قهر لأى تحرك طلابى. المهم قام الرفاق بعقد مؤتمر جماهيرى فى الجامعة، خطبوا ما شاءت لهم قدراتهم الخطابية، هتفوا بأعلى صوت وتنفست الجامعة، ولكن من قال إن الحليف الناصرى يرغب أو يسمح بأن تتنفس الجامعة حتى ولو كانت تهتف بما يقول به النظام، خاصة إذا كان هذا التنفس تحت قيادة الشيوعيين. تحرك النمر، برزت أنياب لا تعترف بصداقة ولا بحليف ولا تحالف. أحيل كثير من الرفاق إلى مجلس تأديب. هى ومحمد عمارة نالا العقاب الأشد: الفصل عاما من الجامعة. ذهبت هى ومحمد عمارة إلى وكيل الحليف فى لجان باندونج وحيد رمضان. وجدا لقاء بارداً ومتجهما وتبدى النمر الشرس على حقيقته.

ومن يومها أدركت ليلى حقيقة هذا الحليف.

* * *

«وأقمنا فى تحد عشنا
لهب أنت ونيران أنا
فتنة أنت ولولا ثورة
جمعتنا ما عشقنا بعضنا».
كمال عبد الحليم
(ديوان إصرار)

الحليف الناصرى فعلها، هى وعدد من رفاقها فصلوا من الجامعة لمدة عام لأنهم

صدقوه وأيدوا رئيس الوزراء الأردنى النابلسى، كما أيده هو. هو أيده على صفحات الجرائد وفى الإذاعة وهم أيدوه وسط الجماهير الطلابية، وهذا هو الفارق. وهذه هى المشكلة.

وفى أول أيام ١٩٥٩ ينقض الحليف الناصرى على حلفائه من الشيوعيين فى أكبر حملة قبض شهدتها مصر منذ عهد الطاغية إسماعيل صدقى (١٩٤٧). ارتبك العمل التنظيمى، مئات الكوارد استضافهم الحليف فى بيوت ضيافة بدأت على الفور بترحيب نازى المذاق، ودارت ماكينة تعذيب شرسة. تم استدعاء ليلى إلى اجتماع عاجل. تم الاجتماع سيرا على الاقدام فى ظلام مساحات من الكورنيش حضره معها مارى بابادبلو وقدرى شعراوى وآخر لا يعرفه أحد منهم سمى نفسه «مدحت». تهامسوا بأنه خارج لتوه من السجن، وهارب لتوه من حكم الرقابة المسائية، الاجتماع كان لتشكيل لجنة حزبية لرعاية أسر الرفاق المقبوض عليهم ولتقصى أخبار المسجونين وأسلوب معاملتهم، تفرق الاجتماع على موعد بينها وبين مدحت لمواصلة فحص حالة العائلات واحدة واحدة وكيفية أيصال المساعدة المالية لها. وكيفية تدبير هذه المساعدات فى ظل حالة الارتباك التى سادت الجميع من أعضاء وأصدقاء للحزب. عدة لقاءات سارا فيها جنبا إلى جنب، كان وجهه خاليا من المشاعر فقد تعلم أن يحترم «الرفيقات»، والعمل الحزبى لا يسمح حتى بترف النظر إلى عينى الرفيقة، لكن كل منهما أخذ فى اختراع مبررات للقاءات عديدة ومتكررة ربما ليس مسموحا بها فى ظل المناخ الإرهابى القاتم. ورويدا رويدا لانت الملامح مع تحفظ متشدد من كل منهما. ثم. إذا به لم يحضر. أبدا لم يتأخر عن موعد. كان قد أعطاها اسم «كريمة» زوجة الرفيق محمد الزعفرانى كبديل إذا قبض عليه. ومن كريمة عرفت اسمه الحقيقى وأنه قبض عليه، قلبها انقبض أكثر مما يجب، وسالت دموع لا تحدث فى حالات القبض الأخرى. ورتبت مع كريمة زيارة له فى السجن. ومرة أخرى بحثت عن مبرر.. لا مبرر سوى رغبتها فى رؤيته. وزارته.. وساعتها شعرت وشعر هو أن الحاجز الحديدى الذى يفصل بينهما جمعهما بأكثر مما توقع كل منهما، ووعدته بزيارته مرة أخرى، ولم تحضر وعرف من «كريمة» أنها قبض عليها وأنها فى سجن القناطر (نساء). وبعد فترة نقل هو إلى سجن القناطر (رجال)، المسافة بين السجنين قصيرة جداً.. مجرد جدار، لكنها بعيدة جدا. هو استخدم خبرته فى اجتياز الحواجز الأمنية وتراسلا عن طريق

أحد المسجونين العاديين المسموح لهم بالتنقل بين السجنين.. وعبر ورق البافرة تراسلا. فى البداية كانت الرسائل حزبية جافة تحمل أخبارا تتسرب من الخارج، وقليلا قليلا بدأت كلمات مغلفة بحذر شديد بالعواطف، ثم انهارت سدود الحذر وصار هناك نوعان من الرسائل إحداهما حزبية والأخرى عاطفية. الدكتورة «أيدا» والدكتور صادق تعاطفا مع هذه العلاقة وأسهما فى تبادل الهدايا والرسائل. وذات يوم رتب د. صادق مجالا للرؤية استدعاه للعيادة واستدعاها للكشف عليها ومن بعيد لمحها.. كانت قد لبست أجمل ثيابها وأبهى زينتها، هو كان كالجميع حافيا ويلبس جوالا من قماش السجن الأبيض، ليس مسموحا بالاقتراب ولا بالتحية، فقط تبادلا النظرات، أرسلت له مع د. صادق منديلا من حرير أبيض طرزته بيديها وبه الحرف الأول من اسمها واسمه. حافظ عليه واستمد منه طاقة لا تنفد عبر سنوات وسجون عدة ولم يزل يحتفظ به إلى الآن.

هو إلى المحاكمة العسكرية فخمس سنوات أخرى وهى تبقى فى السجن أربع سنوات. تتواصل المراسلات ويتواصل معها الانتظار، هى خرجت بعد السنوات الأربع. عاندت عائلتها وصممت على انتظاره. وفور الإفراج عنها عادت إلى صفوف الحزب. كان كل شىء حذرا.

ومحمود توفيق دربها على كتابة رسائله إلى الرفاق بالسجون بالحبر السرى، وبعدها بفترة صدر لها قرار بالانضمام إلى التنظيم الطليعى وتبقى فيه شاهدة على أحداث وأخطاء وخطايا. لكنها تبقى، فالحزب صدر قرار بحله، ولم يبق مجال آخر. وفى ١٥ مايو يلهث إليها قرار سرى من قيادة التنظيم الطليعى بأن أعضاء التنظيم سيحتشدون أمام جامع شركس بعد صلاة الجمعة لتنظيم مظاهرة احتجاج على قرارات السادات بالقبض على قيادات التنظيم، ذهبت مملوءة حماسا. خرج المصلون.. هتفت ولم يرد أحد هتفت وهتفت وانصرف الناس فيما عداها وعضو آخر. مرة أخرى يخذلها النمر الناصرى. المرة الأولى لأنه مفترس والمرة الثانية لأنه قط.

وعندما يتأسس منبر اليسار تكون من أوائل من انضموا إليه. ثم تكون مع أول تشكيل للمكتب النسائى ومع أول من أسسوا اتحاد النساء التقدمى. ولم تزل.